الفصل 07

الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م

وأخيرًا، لقد ذكرت لكم بعض الحقائق، وهي بالتأكيد منطقية أكثر من المناورات الخطابية التي مورست في واشنطن طوال هذه السنين كلها. نعم، لقد توقعت أقوى الاستخبارات في العالم هجومًا إرهابيًّا كبيرًا على غرار ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر، ولكن لم تكن لدنيا أي معلومات لتحديد المطارات، أو أرقام الرحلات الجوية، وهي معلومات ضرورية لوقف الهجوم، أما الأسوأ من هذا كله فهو أنَّ قيادة السيطرة الضرورية لتنسيق الجهود الاستباقية بين الوكالات المختلفة - أو نصب مدافع مضادة للطائرات على سطح مركز التجارة العالمي، واستنفار (نوراد) في أثناء تمارينها العسكرية الاستباقية- قد فشلت في التطبيق على أرض الواقع، ولم يكن ذلك بسبب تقاعس مَن هم في المستوى المتوسط الأدنى مِن مستوى القيادة؛ فنحن قرعنا جرس الإنذار، لكنَّ الجمهوريين في مركز القيادة لم يتحركوا.

وبدلًا من ذلك، وطوال صيف عام 2001م، هددت الولايات المتحدة العراق برد عسكري أسوأ من كل ما تعرَّض له من قبلُ؛ إذا حدث هجوم على غرار هجوم الحادي عشر من سبتمبر. نعم، لقد كرهت الاستخبارات الأمريكية فكرة حدوث هجوم شبيه بهجوم الحادي عشر من سبتمبر، لكنَّ مجموعةً من المتحذلقين في المستويات العليا من الحكومة حثَّت أطرافًا في الاستخبارات على قبول فكرة غزو العراق بوصفها نتيجةً لا مفر منها للهجوم، ولتحقيق ذلك وتنفيذ مخططهم؛ فإنَّهم لم يبذلوا أي جهد لوقف هذا الهجوم.

وما زاد من حالة الفوضى هو انقسام الأمريكيين إلى فريقين اثنين؛ أحدهما يرى أنَّ الطائرات هي التي دمرت مركز التجارة العالمي، والآخر يعتقد أنَّ التدمير كان بفعل متفجرات عسكرية مُتحكَّم فيها، أما أنا فأرى أنَّ اختطاف الطائرات والتدمير المُتحكَّم فيه قد وُقِّتا ليُكمل أحدهما الآخر.

كان هجوم الحادي عشر من سبتمبر مثل خدعة ساحر؛ إذ كانت العيون كلها مشدوهة وهي تتبع مسار الطائرات على يسار المشهد، في حين كانت حركة اليد البارعة تمارس السحر على يمين المشهد. وبعبارة أخرى، فقد وفر اختطاف الطائرات غطاءً لتدمير (البرجين) المُتحكَّم فيه، وهذا يُعرف في أوساط الاستخبارات بعملية (التغطية والخداع).

من المهم فهم أنَّ الاستخبارات ليست كيانًا أُحاديًّا كبيرًا، وإنَّما تجمُّعًا من الأجهزة التي تنقسم إلى فرق أصغر، وحين دخلت التحذيرات بخصوص الهجوم على مركز التجارة العالمي المرحلة العملية، فقد بدا معقولًا ومنطقيًّا دخول فريق من جهاز منافس- يُسمى اليتيم- مركز التجارة العالمي في منتصف الليل، وزرعه متفجرات في أرجاء البنايات بهدف زيادة قوة التفجير، في اليوم الذي ستصطدم فيه الطائرات بالبرجين.

تتطلب الجرائم كلها توافر الدافع والفرصة، وبحسب روايتي، فقد كان أمام الفريق اليتيم ستة أشهر من التحذيرات للحصول على المتفجرات، ورسم خريطة التفجير، وقد وفر تهديد الحرب على العراق الدافع المفقود لتنفيذ ما لا يمكن تصوره.

ومما يُؤسَف له أنَّ كل شيء يصبح مفهومًا وواضحًا إذا تابعنا سجل الأحداث منذ بداية التهديدات الأمريكية للعراق.

هل تكفي هذه الحقيقة؟

لقد عانيت كثيرًا لأقول لكم ذلك، فقد انتظرت طويلًا، ومررت بمحنة مرعبة، وقضيت سنة في سجن قاعدة عسكرية من دون محاكمة، كما ستعرفون لاحقًا.

لقد جاءت البشاعة أسرع مما توقعت. ولكن، عليكم يا أصدقائي أن تتحلوا بالصبر بعض الوقت. بدايةً، سأعطيكم المزيد من الحقائق.

لقد حذَّرت - في بداية حديثي- من وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وكنت أول المستجيبين للإشراف على تعاون العراق مع التحقيقات الخاصة بهذه الهجمات.

سبق لي أن أخبرتكم أنَّني أعرف كل شيء، وقد أُخفِيت هذه الحقائق عنكم أيضًا، وعُمِد إلى أن تبقى طيَّ الكتمان على نحوٍ أكثر مما تتخيلون.

لِنَعُدْ قليلًا الى الوراء، هل تتذكَّرون ما كنتم تفعلونه عندما سمعتم أول مرَّة أنَّ طائرةً اصطدمت بمركز التجارة العالمي؟ هل سمعتم بذلك من الإذاعة وأنتم ذاهبون إلى العمل؟ هل كنتم تصحبون أطفالكم إلى المدرسة؟ هل تتذكَّرون رد فعلكم لحظة سماع الخبر؟

أنا شخصيًّا كنت في مكتب البريد بتاكوما بارك، تلك القرية الهادئة في ضواحي واشنطن، حين صرخ شخص يقف خلفي، قائلًا إنَّ أحد الطيارين المكتئبين أقدم على الانتحار.

أتذكَّر أنَّ رد فعلي الفوري كان كمَن تعرَّض للكمة على البطن: آه، لقد كنا نعرف ذلك، لقد أخبرتهم أنا وريتشارد أنَّ هذا سيحدث، يا إلهي! لماذا لم يستمعوا إلينا؟

أسرعت بالعودة إلى البيت، ثم اتصلت بالدكتور فيوز، أخذ كلٌّ منا يصرخ في الآخر، ونحن نشاهد اللهب على شاشات التلفاز، ثم طلبت إليه أن يمنع الموظفين من دخول البرجين المدمرين، لقد افترضت، وأنا في قمة حزني، أنَّه يمتلك قوة بشرية خارقة لتصحيح الأوضاع، والطيران في خضم هذه الفوضى، وإصدار الأوامر الكفيلة بحماية أرواح الناس.

لكنَّ الوقت كان قد فات، ففي هذا اليوم (الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م) قُتِل (3017) شخصًا، وأصيب (6291) شخصًا آخرين إصابات خطيرة عندما انهار البرجان بزجاجهما الأسود إلى الأرض، وانتشرت غيمة مخيفة من الغبار الحار، ومات رجال الإطفاء مع مَن ماتوا، وللأسف الشديد، فإنَّ هجمات الحادي عشر من سبتمبر أثبتت أنَّه لا يوجد بيننا إنسان خارق.

ومن دون أن أقصد عدم تحميل الحكومة المسؤولية، إلا أنَّني أشك في أنَّ المسؤولين الحكوميين في الدوائر الداخلية قد تصوروا حقًّا قوة الصدمة، أو مدى الدمار، عندما اتخذوا القرار القاتل بعدم وقف الهجوم الرهيب؛ ويُحتمل أنَّهم توقعوا حدوث أضرار قليلة مقارنةً

بالهجمات التي وقعت في السابق. ولتقريب الصورة، فقد أدى تفجير مركز التجارة العالمي عام 1993م إلى مقتل خمسة أشخاص فقط، وجرح ألف آخرين، في حين تَسبَّب الهجوم على المدمرة الأمريكية كول في المياه اليمنية في مقتل (17) شخصًا. ولكن، مهلًا! فقد يقول أحدكم إنَّ أي إنسان لم يتوقع غرق سفينة التايتانيك!

ولكنَّ التايتانيك غرقت، أليس كذلك؟ لقد أُبلغ المزيد من المسؤولين الحكوميين بالهجوم الإرهابي الوشيك في أواخر أغسطس أو سبتمبر بصورة لا يمكن للشعب الأمريكي تخيلها، لقد حذَّرنا كل إنسان خطر ببالنا.

توصلت معظم فرق الاستخبارات إلى استنتاج مفاده أنَّ الطائرات وحدها لا تستطيع تدمير البرجين، وإذا كان الهدف هو إحداث أكبر قدر من التدمير، فلا بُدَّ أنَّ ذلك تطلب بعض المساعدة الإضافية. لا تنسوا وجود مهلة مدَّتها ستة أشهر لتخطيط عملية (التغطية والخداع) التي استخدمت اختطاف الطائرات غطاءً لإتمام المهمة، هذا ما حدث.

لقد حققوا معي مرارًا بخصوص مصادر الدكتور فيوز الأخرى، والأشخاص الذين زودوه بالمعلومات قبل الهجوم. وللحقيقة، فإنَّه لم يَكشف لي عنها قط.

ولكنَّني خمَّنت؛ فبعد انهيار البرج الأول مباشرةً، وقبل انهيار البرج الثاني، تمتم لي الدكتور فيوز شيئًا على الهاتف، كان ذلك يتعلق بشريط فيديو عن الطائرة المختطفة الأُولى وهي تُحلِّق فوق ميناء مانهاتن قبل ثوانٍ من ارتطامها بمركز التجارة العالمي، كانت آلة التصوير ممسوكةً بيد ثابتة في وضع مُتحكَّم فيه، ولم يكن المصور هاويًا أو مذعورًا من الأحداث المتسارعة، وقد سألني حينها الدكتور فيوز: هل تعتقدين أنَّ وجود رجل وامرأة ينتظران على الرصيف ومعهما آلة تصوير سينمائية جاهزة لتصوير الهجوم هو من قبيل المصادفة؟ لقد كان يشتعل غضبًا.

قال لي: «منذ متى نرى متفرجًا يقف حاملًا كاميرا لتصوير حادث مروري في الشارع؟ هذا لا يحدث أبدًا يا سوزان، هذا لا يحدث أبدًا».

ثم أضاف: «هؤلاء عملاء إسرائيليون، لم يكن وقوفهم في هذا المكان محض مصادفة، كانوا يعرفون أنَّ الهجوم سيقع، كانوا ينتظرون ذلك منذ الصباح».

شعرت بحزن شديد ممزوج بالغضب والصدمة، وأنا أشاهد الصور على التلفاز، فرددت عليه قائلةً وأنا أكاد أُجن: «هل تريد أن تقول لي أنَّنا كنا نتوقع هذا الهجوم لأشهر، في حين كان الإسرائيليون يعرفون ذلك طوال هذا الوقت، ولم يخبرونا بذلك؟».

وفجأةً، انقطع الاتصال الهاتفي بيننا، فعاودت الاتصال به، فقال بهدوء: «سوزان، علينا أن نتحدث عن هذا مرَّةً أخرى»، لكنَّنا لم نفعل.

وعلى كلٍّ، فما حدث يثير تساؤلات خطيرة: هل تعمَّد الإسرائيليون أن لا يخبرونا؟ هل قدَّموا لنا صورة عامة عن الهجوم، لكنَّهم أخفوا التفاصيل المهمة التي ربما كانت ستُمكن وكالة الاستخبارات الأمريكية من إفشاله؟

هل تجاهل مسؤولو البيت الأبيض التحذيرات الإسرائيلية مثلما تجاهلوا التحذيرات الأخرى؟ لم يلمح الدكتور فيوز إلى أي شيء من هذا، ومع ذلك، توجد بعض التفاصيل التي تستحق الذكر، لقد كان الدكتور فيوز يعرف هوية فريق الاستخبارات، ووجود شريط الفيديو قبل (24) ساعة من بدء بث محطات التلفزة صور الطائرات وهي ترتطم بالبرجين.

تجدر الإشارة إلى أنَّ الدكتور فيوز كان متفوقًا في مصادره الاستخباراتية، ولكن لا بُدَّ أنَّ شريط الفيديو هذا قد سُلِّم إلى كبار مسؤولي الاستخبارات الأمريكية بسرعة مذهلة؛ ليكون جاهزًا للعرض قبل انهيار البرج الثاني، هذا يعني أنَّ الفيلم قد صوره جهاز استخبارات صديق مثل الموساد، وأنَّه لا يمكن لأي إنسان بث الشريط بهذه السرعة إلا إذا كان أحد كبار ضباط وكالة الاستخبارات الأمريكية.

وهذا أيضًا يُفسِّر التعليقات غير العادية للرئيس بوش. كيف شاهد صور الطائرة الأُولى وهي ترتطم بالبرجين قبل دخوله غرفة الصف في فلوريدا، وكيف قهقه قائلًا إنَّه يعتقد أنَّ هذا الطيار كان مخبولًا؛ وكانت الطائرة الثانية قد ارتطمت بمركز التجارة العالمي في أثناء انشغال الرئيس بوش في القراءة للأطفال، فهمس ابن عمي في أذنه قائلًا إنَّ الاصطدام الثاني قد وقع، هل لهذا أي دلالات؟ ربما أكون مخطئةً، ولكنَّها دلالات خطيرة.

من الواضح أنَّ الرئيس بوش قد شاهد شريط الفيديو الخاص بالطائرة الأُولى وهي ترتطم بالبرجين، وكذلك فعل الدكتور فيوز، لقد صوره عملاء الموساد، وهذا ما أغضبنا، أنا مقتنعة

أنَّ البيت الأبيض وقَّت بث شريط الفيديو لمعرفته أنَّ ردَّ فعلنا سيكون عارمًا؛ ففي لمح البصر سيعرف الأمريكيون أنَّ حليفتنا إسرائيل كانت على معرفة سابقة بالهجمات، وربما أسوأ من ذلك.

إذن، لماذا لم يعلنوا ذلك؟

حدث شيء آخر في ذلك الصباح؛ فقد اتخذت أنا والدكتور فيوز قرارًا حاسمًا في الساعات الأُولى من الهجوم؛ وسواء أصحيحًا كان هذا القرار أم لم يكن، فإنَّني أترك ذلك لحكم التاريخ.

لقد اتفقنا على تجنب توجيه الاتهامات في الأيام الأُولى من الهجوم؛ لأنَّ الاستخبارات الأمريكية لم تكن مستعدةً لسماع تعليقات من قبيل: «لقد قلنا لكم ذلك»، ليس منا على الأقل. لم يكن هذا الاتفاق مؤامرةَ صمت، فنحن لم نتفق على دفن الحقيقة، بل اتفقنا على تأجيل إعلانها. كان الجميع يعرفون أنَّ خطأً شنيعًا قد وقع، وأنَّنا حذَّرنا سابقًا من وقوع هذا الهجوم، وما كانوا بحاجة إليه سريعًا هو مساعدتنا، ومساعدة كل شخص له علاقة خاصة بمصادر رفيعة المستوى، قريبة من إرهاب الشرق الأوسط، لقد كانوا بحاجة إلينا.

كان يمكن لخذلان المجتمع الاستخباراتي في تلك الأيام الأُولى، أن يُحطِّم معنويات الرجال والنساء الذين كان عليهم حشد طاقاتهم كلها للشروع في تحقيق فاعل.

لقد أردنا المشاركة في هذا التحقيق، لذلك قررنا الانتظار قبل لفت الانتباه إلى توقعات فريقنا الدقيقة، كنت أتوقع دائمًا من أي لجنة تحقيق يُشكِّلها الكونغرس أن تُخرج تحذيراتنا السابقة إلى العلن، وكنت أتوقع أيضًا أنَّ انتظارنا سيكون لأسابيع قليلة حتى ينتهي الجميع من التحقيق في هذا العمل الإجرامي.

لقد قدَّرنا أنَّ قرارنا بالانتظار ستكون له عواقب وخيمة، ولم نكن ندرك إلى أي مدى ستكون خطيرةً أو رهيبةً؛ وكما يقولون: فإنَّ الطريق إلى جهنم مفروشة بالنوايا الحسنة. أما بالنسبة إليَّ، فكان ذلك يعني هاويةً ما لها من قرار.